

المحاضرة الثامنة كارل مانهايم ونسبية المعرفة

إذا كان شيلر قد وضع الأساس الفلسفي، فإن كارل مانهايم نقل علم اجتماع المعرفة إلى حقل علم الاجتماع بشكل منهجي. يرى مانهايم أن الأفكار ليست مستقلة عن المجتمع، بل تتشكل داخل مواقع اجتماعية محددة (Social Location of Knowledge). أي أن الطبقة، الجيل، الموقع الاجتماعي، تؤثر في طريقة التفكير.

1. الخلفية الفكرية:

يعد كارل مانهايم (1893-1947) الوريث الرئيس لشيلر، والذي حوّل علم اجتماع المعرفة إلى مشروع إمبيريقي ونقدي. في كتابه الشهير "الإيديولوجيا واليوتوبيا: مقدمة في علم اجتماع المعرفة" (1936)، يطور مانهايم مفهوم "الارتباط الوجودي للمعرفة"، أي أن المعرفة مرتبطة بوضع اجتماعي-تاريخي محدد. مع مانهايم، تنتقل سوسيولوجيا المعرفة من التأمل الفلسفي حول شروط المعرفة إلى التحليل السوسيولوجي الملموس للإيديولوجيا واليوتوبيا. تأثر مانهايم بالماركسية (خصوصًا مفهوم "البنية التحتية والبنية الفوقية")، وبالتقليد التأويلي الألماني (hermeneutics). "تمت محاولة التوفيق بين علم اجتماع المعرفة الماركسي والمناهض للماركسية في ألمانيا من قبل كارل مانهايم. فهو يمتد بالتحليل الأيديولوجي الذي يطبقه الماركسيون على التفكير "البرجوازي" ليشمل أيضًا التفكير البروليتاري، أي بالنسبة له التفكير الماركسي. وبالتالي فهو يضع كلا طريقتي التفكير في إطار النسبية". (Adler, 1955, p9)

2. المنظور السوسيولوجي للمعرفة عند مانهايم

1.2. الارتباط الوجودي للفكر

هذه هي الفكرة المحورية لدى مانهايم، وتعني أن الفكر ليس نشاطًا حرًا ومنعزلًا، أي ليس نتاجًا لعقل مجرد، بل هو مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالوجود الاجتماعي والتاريخي للمفكر. فالموقع الطبقي، والانتماء الجيلي، والمجموعة التي ينتمي إليها الفرد، كلها عوامل تشكل منظوره الذي يرى من خلاله الفرد العالم. لا توجد رؤية للحقيقة من "لا مكان"؛ فكل معرفة هي معرفة متوقعة تاريخيًا واجتماعيًا. هذا الارتباط ليس مجرد علاقة سببية ميكانيكية، بل هو "تقارب" بنيوي يجعل بعض الأفكار تبدو "طبيعية" لمجموعة معينة بينما تبدو "غير قابلة للتصديق" لمجموعة أخرى. حيث يركز مانهايم على فكرة أن المعرفة، وخصوصًا الفكر السياسي والاجتماعي، "مشروطة وجوديًا" أو مرتبطة بالموقع. أي أن موقع الفرد في البنية الاجتماعية

(طبقة، جيله، مهنته، وغيره) يشكل رؤيته للعالم وتفكيره، ليس فقط في مضامينه، بل حتى في فئاته ومنطقه، مبرراً أهمية "الجيل" كفئة تحليلية وأثر الظروف التاريخية على إنتاج الأفكار.

"يعكس البرنامج التحليلي المقترح لمانهايم بوضوح رأيه بأن الأفكار محددة اجتماعياً. جادل بأن التحليل يجب أن يبدأ بفهم، بإعادة بناء أسلوب التفكير الأساسي أو المنظور الكامن وراء وتوحيد الأفكار المحددة التي عبرت عنها الجماعة. يجب أن يستمر التحليل بعد ذلك لتحديد ما إذا كانت تلك المجموعة من الأشخاص تفكر كما تتبأ به المنظور المعاد بناؤه. أخيراً، يجب أن يحدد التحليل الروابط السببية التي يفترض أنها موجودة بين المنظور والجوانب الاجتماعية لموقف الجماعة". (GOFF, 2015, p7)

2.2. الأيديولوجيا واليوتوبيا

يعد كتاب مانهايم "الأيديولوجيا واليوتوبيا" (Ideology and Utopia (1929) أحد النصوص الكلاسيكية في علم الاجتماع المعرفي.

مفهوم الأيديولوجيا: هي مجموعة الأفكار التي تتبناها الفئات الحاكمة أو المهيمنة بهدف تبرير الوضع القائم والحفاظ عليه. الأيديولوجيا تميل إلى إخفاء التناقضات وتصوير الواقع الاجتماعي على أنه طبيعي وأبدي. الأيديولوجيا تصبح "عمياء" تجاه الواقع الجديد لأنها تستخدم فئات فكرية قديمة لتبرير الوضع الراهن، مما يجعلها أداة للحفاظ على الهيمنة. تجدر الإشارة هنا إلى أنه لا يجب الخلط بين "الأيديولوجيا" عند مانهايم والمفهوم الماركسي السلبي للأيديولوجيا. فالأيديولوجيا عند مانهايم هي أداة تحليلية محايدة، تشير إلى أي منظومة فكرية مرتبطة بموقع اجتماعي.

وسع مانهايم مفهوم الأيديولوجيا إلى مستويين: (1) الأيديولوجيا الجزئية، تعني تشويه الواقع من طرف أفراد أو جماعات، أي تحريف متعمد للحقائق. (2) الأيديولوجيا الكلية، تعني أن الرؤية الفكرية لجماعة اجتماعية كاملة مرتبطة بموقعها الاجتماعي. المفهوم الخاص (Particular Conception): يشير إلى التشكيك في أفكار الخصم باعتبارها "أكاذيب" أو "تزييفات" واعية أو غير واعية لمصلحته. هنا، نحاكم أفكار الآخر بينما نستثني أفكارنا من هذه التهمة. إنه مستوى نفسي فردي أو جماعي. المفهوم الكلي (Total Conception): يشير إلى "رؤية العالم" بأكملها لطبقة أو جماعة معينة. هنا، لا نشكك في جزئية معينة من أفكار خصمنا، بل في بنية وعيه بأكملها. إنه مستوى تاريخي-ثقافي.

فيما بعد "أدرك مانهايم (1998) التوترات المحتملة بين جوانب المعرفة (علم اجتماع المعرفة) والأيديولوجيا (دراسات الأيديولوجيا)، وصرح بوضوح أنه "في مجال علم اجتماع المعرفة، سنتجنب إذن، قدر الإمكان،

استخدام مصطلح أيديولوجيا، بسبب دلالاته الأخلاقية، وسنتحدث بدلاً من ذلك عن 'منظور' المفكر. ونعني بهذا المصطلح نمط المفكر الكلي في تصور الأشياء كما يحدده وضعه التاريخي والاجتماعي". (BARANOWSKI, 2019, p9)

مفهوم اليوتوبيا: هي مجموعة الأفكار التي تتبناها الفئات الخاضعة أو الصاعدة، والتي تهدف إلى نقد الواقع القائم وتجاوزه نحو مستقبل مختلف. اليوتوبيا تعمل كقوة دافعة للتغيير الاجتماعي. اليوتوبيا تتطلع نحو المستقبل وتسعى لتحطيم النظام القائم، لكنها هي الأخرى قد تشوه الواقع عبر التركيز فقط على ما يخدم عملية التغيير وتجاهل التحديات الموضوعية. ميز مانهايم بين الأيديولوجيا بوصفها أفكار تدعم النظام القائم. أما اليوتوبيا فتعني أفكار تدعم تغييره. فالأفكار الثورية غالباً ما تنشأ لدى الجماعات المهمشة.

3.2. الإشكال المركزي: النسبية (Relativism) أم الارتباطية (Relationism)؟

طور مانهايم نظرية نسبية المعرفة من خلال تحليل الأيديولوجيا واليوتوبيا، مشيراً إلى أن كل معرفة مرتبطة بموقع اجتماعي محدد وأن فهم الحقيقة يتأثر بالانتماء الطبقي والثقافي. هذا هو القلب النابض لمشروع مانهايم وأكثر نقاطه إثارة للجدل. واجه مانهايم مشكلة فلسفية مفادها: إذا كانت كل الأفكار مرتبطة بالمجتمع، فهل تصبح الحقيقة نسبية بالكامل؟ فإذا كانت كل الأفكار (بما فيها فكرة سوسيولوجيا المعرفة نفسها) مشروطة اجتماعياً، فكيف يمكنها الادعاء بأي صلاحية أو موضوعية؟ ألا يقع مانهايم هنا في فخ "النسبية". لذلك قدم مفهوم النسبية وهو يعني أن المعرفة مرتبطة بالسياق الاجتماعي لكنها ليست اعتباطية. فالحقيقة يمكن الاقتراب منها عبر مقارنة وجهات النظر، وتحليل مواقعها الاجتماعية.

علاوة على ذلك، واجه مانهايم اتهاماً بأن نظريته تقود إلى نسبية مطلقة، حيث يصبح كل فكر صحيحاً من منظور الجماعة التي أنتجته، مما يلغي إمكانية وجود حقيقة موضوعية. للهروب من هذا المأزق، اقترح مانهايم مفهوم "العلائقية"، الذي يقر بأن كل معرفة هي "علائقية" (مرتبطة بموقع معين)، لكن هذا لا يعني أنها خاطئة. يمكن الوصول إلى رؤية أكثر شمولاً وموضوعية من خلال تجميع وتركيب وجهات النظر الجزئية المختلفة. رفض النسبية المطلقة، واقترح أن العلاقة بين الفكر والواقع الاجتماعي هي علاقة "ربط" وليس علاقة تبعية. هذا يعني أن المعرفة ليست خاطئة بالضرورة، بل هي "مرتبطة" بظروفها. يجيب مانهايم عبر مفهوم دقيق هو "الارتباطية" (Relationism)، مميّزاً إياها عن النسبية:

- النسبية: هي المذهب الذي ينكر وجود أي معايير للحقيقة أو الصدق، وتعتبر كل المعتقدات متساوية في القيمة (أو عدمها).

- الارتباطية: هي القول بأنه لا وجود لحقيقة "مطلقة" أو "أبدية" في مجال الفكر التاريخي-الاجتماعي، لكن هذا لا يعني أن المعرفة مستحيلة. فالحقيقة موجودة، ولكنها مرتبطة بمنظور معرفي معين. المطلوب هو تركيب هذه المناظير الجزئية في كل أشمل.

يرفض مانهايم النسبية التي تؤدي إلى الشكوكية والعدمية (حيث تكون كل الحقائق متساوية وغير صالحة)، ويقترح بدلاً منها العلائقية المعرفة صالحة موضوعياً ضمن سياقها الاجتماعي، تماماً كما في نظرية النسبية الفيزيائية لأينشتاين (القياس يعتمد على موقع الراصد).

المثقفون المتحررون: اقترح مانهايم فكرة "Free-floating intelligentsia" أي طبقة المثقفين القادرة على تجاوز القيود الطبقية لأنها أقل ارتباطاً بالمصالح المباشرة. حيث ينظر إليها كمجموعة قادرة على التجاوز النسبي للتحيزات للوصول إلى معرفة أكثر موضوعية.

لمواجهة الانغلاق الأيديولوجي، طرح مانهايم فكرته الشهيرة (والمثيرة للجدل) عن "المثقفين غير المرتبطين اجتماعياً" (The socially unattached intelligentsia). هؤلاء هم طبقة مثقفة تتكون من شرائح اجتماعية متعددة، وتتميز بتكوينها التعليمي الذي يؤهلها لأن تكون "مركز استشعار" للمجتمع بأسره، وغير مرتبطة بشكل مباشر بعملية الإنتاج، وقادرة على تجاوز الرؤى الجزئية للطبقات المختلفة والوصول إلى تركيب ديناميكي أكثر تكاملاً وموضوعية.

تعرض النظرية النقدية (مدرسة فرنكفورت) وغيرها على حل مانهايم للموضوعية عبر المثقفين "المحررين". يرى النقاد أن هذا المثقف لا يزال مرتبطاً بموقعه الطبقي والثقافي، وأن ادعاء الموضوعية هو نفسه أيديولوجيا. كما أن مفهوم "النسبية العلائقية" لم يحل مشكلة المعايير المعيارية: إذا كانت كل المعرفة نسبية، فبأي معيار نحكم على صحة أو خطأ أي نظرية؟

يبقى مانهايم نقطة الارتكاز الأساسية في سوسيولوجيا المعرفة. لقد كشف بجرأة عن الشرط الاجتماعي للفكر، ووضع الإشكالية المركزية للحقل: كيف نبني معرفة موضوعية عن الموضوعية الاجتماعية للمعرفة؟ إن مشروعه ليس مجرد نظرية، بل هو محاولة لفهم "التفكك" الروحي للمجتمع الحديث، وإعادة بناء العقل على أسس جديدة تتسع لتعددية المناظير. تجدر الإشارة هنا إلى أن كل من "دوركايم ومانهايم انتقدا بسبب ميلهما إلى جعل كل المعرفة نسبية، بما في ذلك "المعرفة حول المعرفة" المعبر عنها في التقليد العلمي".

(GOFF, 2015, p10)